أعيـــــاد الأُم

(يوم الأمهـات(*))

احتفل الشعب الأمريكى ذات يوم بيوم الأمهات .. وهو اليوم الذى يقدم فيه كل ابن إلى أمه هدية صغيرة .. وتصبح الأم فى كل بيت ملكة متوجة لا تطبخ .. ولا تغسل .. ولا تشقى فى الشئون المنزلية .. بل يتسابق الأولاد إلى خدمة أمهم ورعايتها.. يعدون لها الطعام، ويغسلون الأطباق .. ويدعونها إلى قضاء سهرة على حسابهم .. ويحاولون فى ذلك اليوم أن يردوا لها جزءاً صغيراً من عطفها عليهم وعنايتها بهم ..

وفى ذلك اليوم وقف الطفل (بارى روكلاند) وعمره ١٠ سنوات أمام محل تجارى فى نيويورك .. لقد اشترى لأمه فى العام الماضى حقيبة يد .. وفى العام السابق خمسة جوارب نايلون .. وفى العام الأسبق صندوق شيكولاته ..

ولكنه فى هذا العام كان يرغب أن يقدم شيئاً لأمه طالما تمنته .. ولكن حالته المالية كانت تحول بينه وبين ما يتمنى .. لقد سمع أن أمنيتها أن تشترى معطفاً من الفراء .. وقرر أن يقدم لها هذا المعطف ..

ودخل الطالب المتجر، وطلب أن يشترى المعطف الذى أعجب أمه، فقيل له أن ثمنه مائة جنيه!..

فقال الطفل إن إيراده من بيع الصحف هو ثلاثون قرشاً فى الأسبوع .. فهل يقبل المحل أن يسلمه المعطف على أن يدفع هذا المبلغ كل أسبوع؟..

(*) على أمين ـ أفكار للبيع ..

وقال له صاحب المحل :

ـ كلا، خذ المعطف وادفع لنا ثلاثة شلنات فى الاسبوع .. واستبق باقى مكسبك لمصروفك الخاص .. ولكن هل أنت مستعد للاستمرار فى دفع هذا القسط إحدى عشرة سنة ؟..

فقال الطفل :

ـ بل مائة سنة .. أنتم لا تعرفون ما فعلته أمى من أجلى ..

وأخذ المعطف إلى بيته، وقدمه لأمه فى يوم الأمهات ..

* * *

(عيد الأم .. مقدس)

*** وكتب «عباس محمود العقاد» فى جريدة «الأخبار» يقول :**

ـ يوم الأم عيد من أعيادنا المقدسة عسى أن يدوم على مدى السنين ..

ونحن ـ الشرقيين ـ لا يعوزنا حب الأمومة، ولا نحتاج فيه إلى تعليم من الأمم الغربية؛ لأن شعائر «الأم الخالدة» عريقة فى ديانات الشرق من عهد بعيد، جد بعيد.

والدين يعلمنا أن «الجنة تحت أقدام الأمهات» ..

وشاعرنا الحكيم الزاهد فى الذرية يوصى قارئه أن يكرم أباه الشيخ، ثم يدركه فيقول :

ـ «وفضل عليه فى كرامتها الأُمّا» ..

وأكبر شعرائنا ـ «ابن الرومى» و «المتنبى» و «الشريف الرضى» ـ لا نحفظ لهم شعراً أبلغ من قصائدهم فى ذكرى الأمهات ..

نحن لا نحتاج ـ إذن ـ إلى تعليم من الغرب فى حب الأمهات، وإنما نحتاج إلى تنظيم ..

وقد جاء هذا التنظيم فى أوانه تذكرة للأبناء وتذكرة قبل ذلك للأمهات .. أو تذكرة للمرأة التى كادت فى هذا الزمن تنسى أقدس واجباتها وحقوقها معاً، وهى واجبات الأمومة وحقوقها مجتمعات .

المرأة «الأم» هى بقية القديسين فى زمن بطلبت فيه القداسة، فإنما هى زوجة لتكون أُماً، وإنما هى محبة محبوبة لتكون أُماً، وإنما هى ذات مكان فى المجتمع كله لتكون أُماً، وإنما هى كل شىء بالأُمومة، وليست بشىء على الإطلاق إذا نسيت هذه الأمومة ..

فلتذكرها فى ضميرها على مدى الأيام ..

ولتذكرها مع جميع الأمهات وجميع الأبناء يوماً فى كل عام ..

* * *

(عيد صنعته الدموع)

فى عام ١٩٦٢ قال على أمين :

كان ذلك منذ سبع سنوات .. فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٥ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ ..

كنت جالساً فى مكتبى بدار أخبار اليوم، «أهرش» فى رأسى ..

كنت أبحث عن «فكرة» أكتبها ..

وفى هذا الصباح تبخرت كل الأفكار من رأسى .. طارت كلها فى الهواء ..

وحاولت أن أسترد أفكارى بفنجانين من القهوة وبدخان السجائر الذى ملأت به جو مكتبى، ولكنى فشلت فى العثور على فكرة واحدة أضعها على الورق ..

وبدأت أرتب الأوراق المبعثرة على مكتبى؛ لعل تنظيم الكتب يعيد ترتيب الأفكار المبعثرة فى رأسى ..

وكان الجو بارداً .. ومع ذلك فتحت النوافذ .. لعل الهواء البارد يحمل لى «فكرة» ..

وفجأة فتحت سكرتيرتى الباب وقالت لى :

ـ **سيدة تبكى تطلب مقابلتك** ..

وتشاءمتُ، فأنا لا أطيق دموع النساء .. إنها تحطم أعصابى، وتشتت أفكارى، وتفقدنى النطق ..

ودخلت الزائرة مكتبى وهى ترتدى ملابس الحداد!..

وزاد تشاؤمى ..

وجلست أمامى، وغرقت فى البكاء ..

قال لى وجهها : إنها فى الخمسين من عمرها !!..

وقالت لى أصابعها وهى تصافحنى : إنها امرأة عاملة .. فإن خشونة يدها الصغيرة روت لى قصة جهاد امرأة فقيرة ..

وقالت لى ملابسها : إنها من أسرة متوسطة .. أو من أسرة كريمة غدر بها الزمن، وسرق منها كل شىء إلا الذوق السليم..

وطلبتُ منها أن تتكلم .. فانسابت دموعها ..

ثم قالت لى :

ـ **لقد فقدت ابنى اليوم** ..

قلت لها :

ـ **البقية فى حياتك يا سيدتى** ..

قالت :

ـ إنه لم يمت، لقد فقدته، خرج من حياتى ..

قلت :

ـ وهل هذا هو سبب ملابس الحداد؟

قالت :

ـ إننى ألبس السواد منذ ٢٥ سنة من اليوم الذى مات فيه زوجى، ولكن السواد الذى لف قلبى أكثر من السواد الذى ألف به جسدى .. فقد ترك لى زوجى ابنى، فعشت له .. أما الآن فلا أجد مبرراً للحياة ..

سألتها :

ـ هل اختلفت مع ابنك؟

قالت :

ـ أبداً .. إننا لم نختلف فى يوم من الأيام، بل إنه بعد أن مزق قلبى هذا الصباح، حرص على أن يُـقـبِّل يدى، إنه ولد مؤدب .. ولكن ..

سألتها :

ـ وكيف مزق قلبك؟

وهنا اغرورقت عيناها بالدموع ..

ثم روت لى قصتها مع ابنها .. كيف أعطته كل شىء .. أعطته شبابها ورفضت أن تتزوج بعد وفاة زوجها وهى فى سن العشرين، حتى لا تعرِّض ولدها لقسوة زوج الأم .. وباعت مصوغاتها، ثم أثاث بيتها، ثم حلَل المطبخ، ثم ملابسها؛ لتعلمه ولتعده للحياة .. واضطرت أن تشتغل خياطة لتصرف على ولدها .. وفى بعض الأحيان كانت تشتغل سراً خادمة، تغسل وتكوى الملابس فى الفترات التى يقل فيها إقبال الزبائن على تفصيل الفساتين الجديدة ..

وفى بعض الليالى كانت تنام بلا طعام .. ولكنها لم تكن تشعر أبداً بالجوع، فإن سعادة ابنها ونجاحه فى المدرسة كانت تملأ عينيها وتشعرها أنها شبعت ..

* * *

وحصل ابنها على الدبلوم، وحصل على وظيفة ..

وفى أحد الأيام فاتحها فى رغبته فى الزواج، فشجعته على اختيار بنت الحلال، واختار العروس وباركت اختياره .. وقال لها : إن العروس لا تريد أن تعيش معها، فأيدت رأيها، وقالت لابنها : إن هذه رغبة طبيعية ومقبولة ومعقولة من العروس؛ لأنها تريد أن تستقل ببيتها، وتريد أن تشعر أنها صاحبة البيت لا مجرد زوجة ابن صاحبة البيت ..

وأعدت لابنها كتبه، ورتبت ملابسه فى الحقائب .. ولم تنس الأشياء الصغيرة التى يعتز بها ويجب أن تكون حوله ..

وحانت ساعة خروج الابن من البيت ..

وحمل الابن حقائبه وخرج ..

ونسى الابن أن يقول لأمه الكلمة التى انتظرت ٢٥ سنة لتسمعها من شفتيه ..

نسى أن يقول لها :

ـ شكراً يا أمى ..

وقالت الأم لى :

ـ لماذا نسى أن يقول لى «شكراً» لا أتصور أنه ابن عاق .. إنه ولد مهذب ومؤدب.. هل تظن أن صغر سنه هو سبب نسيانه؟ ..

وأحسستُ أنها تريد منى أن أكذب عليها .. تريد منى أن أقول لها أن ابنها الذى يبلغ من العمر ٢٥ سنة لايزال طفلاً .. وأنه عندما يكبر سيقول لها : «شكراً» ..

وكذبت عليها ..

فقد كان الكذب هو المنديل الوحيد الذى استطعت أن أجفف به دموعها !..

وكانت دموع هذه الأم هى المداد الذى كتبت به «الفكرة» التى نشرتها فى يوم ٦ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ ..

فقد هزتنى دموعها وهزت قلمى ومشاعرى!..

واكتشفت عقب خروجها من مكتبى أننى أيضاً نسيت أن أقول لأمى :

ـ شكراً يا أمى!..

لقد قلت لأمى «شكراً» ألف مرة .. ولكن كان يجب أن أقولها مليون مرة ..

وأمسكت قلمى وكتبت قصة هذه الأم المنسية باختصار، ثم ختمت الفكرة قائلاً:

«الواقع أننا ننسى أمهاتنا .. ننسى التضحيات التى تقدمها الأم لنا .. ولا نذكرها إلا بعد أن يفرق الموت بيننا» ..

«فلماذا لا نتفق على يوم من أيام السنة، نطلق عليه لقب «يوم الأم»، ونجعله عيداً قومياً فى بلادنا وبلاد الشرق .. وفى هذا اليوم يقدم الأبناء لأمهاتهم الهدايا الصغيرة، ويرسلون للأمهات خطابات صغيرة يقولون فيها «مرسى» أو «شكراً» أو «ربنا يخليكى»؟

لماذا لا نشجع الأطفال فى هذا اليوم، أن يعامل كل منهم أمه كملكة، فيمنعوها من العمل، ويتولوا هم فى هذا اليوم كل أعمالها المنزلية بدلاً منها؟

ولكن أى يوم فى السنة نجعله «عيد الأم»؟

«اختاروا أنتم اليوم .. وأنا أجعله لكم عيداً للشرق، وعيداً للقلوب» ..

وتلقيت ألوف الخطابات من القراء يؤيدون فكرة «عيد الأم» ، واختلفت الآراء حول تحديد اليوم ..

وجاءتنى السيدة «زينات الجداوى» تهنئنى بالفكرة ..

ورفضت التهنئة، قلت لها : إن التهنئة الوحيدة التى أقبلها منها هى أن تتصل بالجمعيات النسائية وتعرض عليها الفكرة، وتطلب منها أن تؤيدها ..

وتحمست «زينات» ..

وفى اليوم التالى هبطت حماستها ..

فإن سيدات الجمعيات النسائية اختلفن على اختيار «يوم عيد الأم» .. وكان من نتيجة هذا الخلاف، أن اتفقن على دفن «الفكرة» ..

وهددت بنشر تفاصيل الخلاف بين السيدات على الناس؛ لتعرف الدنيا حجم العقول الصغيرة، التى تسيطر على جمعياتنا النسائية ..

ولم يؤثر تهديدى فى زعيمات الجمعيات النسائية .. لقد اتفقن على دفن الفكرة..

وقررت أن أضع زعيمات الجمعيات النسائية أمام الأمر الواقع، فاخترت وحدى يوم ٢١ من مارس عيداً للأم ..

فهو أول أيام الربيع فى بلادنا .. وأول أيام موسم الحب .. وحب الأم هو أجمل ألوان الحب ..

وفى يوم ٩ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ أمسكت قلمى وكتبت الفكرة التالية :

* * *

(فكـــرة)

* ما رأيكم فى يوم ٢١ من مارس؟ ..

إنه اليوم الذى يبدأ فيه الربيع، وتتفتح فيه الزهور، وتتفتح فيه القلوب!!

ما رأيكم أن نجعل «عيد الأم» هو بداية الربيع فى بلادنا، وبلاد الشرق الأوسط؟ ونساهم كلنا فى جعل الأم فى هذا اليوم «ملكة بيتها»، فلا تغسل، ولا تطبخ، ولا تمسح، وإنما تصبح «ضيفة الشرف» ويتولى أولادها كل أعمالها المنزلية، فيطهون لها الطعام، ويقدمون لها الهدايا وباقات الزهور، ويضعون تحت عقب الباب فى حجرة نومها خطابات رقيقة يسجلون فيها نبضات القلب التى تاهت بين الشفاه طوال العام؟..

انه يوم الأم فى الدول الأوربية والأمريكية هو الأحد الأول من شهر مايو من كل عام، وهو يتأرجح بين يوم أول مايو ويوم ٦ من مايو .. وأنا أكره هذه المرجحة، وأرى أن نختار يوماً معينـًا لا يتغير تاريخه على مر الأيام ..

ومع ذلك فالرأى لغالبية القراء، فأنا لا أريد أن أفرض يوماً معيناً .. ولكن يهمنى أن نتفق على يوم واحد ..

ولقد تلقيت مئات من الخطابات والتليفونات .. ومعظمها يتفق على أن يكون عيد الأم يوماً من أيام الربيع .. وأحدها يقترح أن نختار يوم ميلاد الأم التى شكت لى من أن ابنها نسيها بعد أن ضحت من أجله بشبابها وأثاث بيتها وملابسها .. وأحدها يقترح أن نختار اليوم الذى ولدت فيه أمنا حواء!!.

وجاءنى خطاب واحد يعترض على فكرة الاحتفال بعيد الأم، إنه خطاب من يتيم فقد أمه .. إنه يقول : إن احتفال الأولاد بأمهاتهم سيزيد عذابه وعذاب اليتامى، ولكنى لا أوافق على هذا الرأى .. فإذا نحن احتفلنا بالأحياء فإننا لن ننسى الأموات.

إننى شخصياً سأذهب فى هذا اليوم إلى قبر أمى، وأضع عليه باقة من الورد، فالذى يتذكرون أمهاتهم لا يتعذبون، وإنما يحلّقون فى السُّحب مع الملائكة .. فما رأيكم فى يوم ٢١ من مارس؟

أكتبوا إلىّ ..

واقتنع الألوف برأيى ..

وبقيت الجمعيات النسائية تحارب الفكرة!..

وبدأت الصحف تهاجمنى وتهاجم الفكرة، وتقول : إنها فكرة أمريكانية لا تتفق مع تقاليدنا ..

وقالت صحف أخرى : إننى أقوم بدعوة استعمارية أحاول فيها هز كيان الأسرة فى بلادنا بالتفريق بين الأب والأم ..

ورحت أكتب فى كل صحف دار أخبار اليوم أدعو للاحتفال بعيد الأم فى يوم ٢١ من مارس من كل عام ..

وملأت صحف ومجلات دار أخبار اليوم بصور كاريكاتورية تدعو لفكرة عيد الأم.. فالصورة تغنى فى كثير من الأحيان عن ألف مقال ..

ورأيت أننى فى حاجة إلى سند رسمى، فاتفقت مع السيدة زينات الجداوى أن تذهب إلى مقابلة وزير المعارف ـ فى ذاك الوقت ـ السيد كمال الدين حسين وتعرض عليه الفكرة .. فتجمس لعيد الأم، وأيد فكرة الاحتفال به فى يوم ٢١ من مارس من كل عام، وأصدر منشوراً لجميع مدارس الدولة يطلب منها الاحتفال بهذا العيد كل عام ..

وصوبت كل مدافع «أخبار اليوم» لإنجاح فكرة الأم ..

كانت فكرة «عيد الأم» تصدم القارئ فى كل صفحة وفى كل باب وفى كل ركن .. بل أدخلت «العيد» فى السياسة فكلفت «رخا» و «صاروخان» رسم عدة صور كاريكاتورية سياسية تستغل فكرة عيد الأم فى مشاكلنا السياسية والدولية ..

وانتقلت فكرة العيد إلى سوريا وإلى لبنان وإلى الأردن، وإلى المملكة السعودية وإلى شمال إفريقيا وإلى السودان .. وراحت كل البيوت والأكواخ تحتفل بعيد الأم ..

واستمرت المدافع تنطلق فى شهرى يناير وفبراير ..

وفى مارس بدأت أعد القراء للعيد!..

كان إذا فتح جريدة الأخبار فى أول مارس يقرأ أنه باق من الزمن ٢٠ يوماً!!.

وإذا فتحها فى ٢ من مارس، قرأ أنه باق من الزمن ١٩ يوماً .. وهكذا ..

وزاد حماس الناس لعيد الأم!..

وفى الأسبوع السابق للعيد بدأت المحلات التجارية تلاحظ إقبالاً غير عادى ..

وتضاعف الزحام يومًا بعد يوم ..

واتصل بى أصحاب محلات صيدناوى وشيكوريل وعمر أفندى، وقالوا لى : إن محلاتهم لم تر زحاماً كالذى شاهدته فى الأيام السابقة لعيد الأم!!..

وازدحمت كل المحلات التجارية، وسجلت أرقاماً فى المبيعات لم تسجلها فى الأعياد ..

وفى يوم ٢١ من مارس رحت أتجول فى الشوارع .. فرأيت مئات الألوف من الأولاد والبنات يحملون الهدايا .. ورأيت رجالاً وسيدات يحملون الصناديق الملونة، فلقد اشترك الكبار مع الصغار فى هذا العيد .. وامتلأ كل بيت وكل كوخ فى بلادى بالضحكات ودموع الفرح!!..

وذهبت إلى الإمام الشافعى مع مصطفى أمين، ووضعنا باقة من الزهر على قبر أمى!!..

وكلفت أحد باعة الزهور إرسال باقة زهر إلى الأم التى نسى ابنها بعد ٢٥ سنة أن يقول لها :

ـ شكراً يا أمى ..

ووضعت على الباقة اسم الابن الضعيف الذاكرة ..

وفى صباح اليوم التالى وجدت السيدة المنسية تنتظرنى فى مكتبى ..

وقالت لى السيدة :

ـ شكراً على باقة الزهر الجميلة، لقد كانت منك أنت، لا مِـنْ ولدى ..

وأكدت لها أنها مخطئة وأنها من ابنها :

ولكن السيدة قالت لى ضاحكة :

ـ إننى واثقة أنها منك أنت .. فقد أرسل لى ابنى باقة أخرى جميلة جداً..

ولاحظت أنها خلعت السواد، وسألتها عن السبب، فقالت لى :

ـ إنه أول أعيادى ..

وتقدمت منى، وأحاطتنى بذراعيها، وقبلتنى ..

ومازلت أحس بقبلات هذه السيدة على وجهى .. فإن قبلتها كانت أرفع وسام حصلت عليه فى حياتى الصحفية(*) ..

* * *

(*) الهلال ـ مارس ١٩٦٢ ..

(الأم فى عيدها(*))

منذ الأزل كانت قوام الأسرة وكان الأبناء ينسبون إليها .. لماذا؟ ..

* **فى المكانة : قيل** أم القرى، وأم الكتاب. وفى الانتماء يقولون : الوطن أو اللغة الأم .. وليس الأب!!

الأم لم تأخذ مكانها فى التراث الشعرى العربى، ورد اعتبارها الشعراء المحدثون .. خاصة شعراء المهجر ..

قلما عرفت لغات أهل الأرض كلمة مشتركة بينها تضارع كلمة «الأم» ففى بنية هذه الكلمة حيث حرف الميم هو العمدة، يلاحظ أيضاً أن حرف الميم قاسم مشترك بين لغات الأمم يدور على ألسنتها، ولا سيما ألسنة أطفالها على الدوام، مع اختلاف يسير فى سائر حروف الكلمة ..

ومن المرجح، وفقاً لما يجنح إليه علماء الألسنيات والأنثروبولوجيا، أن ما فطر عليه الطفل البشرى فى أى مكان من هذه الدنيا، من مناغاته أمه بصوت : ما، أو مام، أو مامى، أو ماما .. إلخ أو ما شابه ذلك، إنما هو أصل إطلاق تسمية (الأم) على ذلك الكائن الإنسانى عبر العصور وعلى اختلاف الأمكنة وتباين الأقوام ..

والأم فى اللغة تعنى فيما تعنيه : الأصل والأساس والنسخ والجذر والمنبع والمنبت والمنشأ .. وفى سالف العصور الموغلة فى القدم كانت الأم فى الجماعات البدائية هى قوام الأسرة وعمدتها .. وقد ظل البشر دهوراً طوالاً ينتسبون إلى أمهاتهم دون آبائهم، باعتبار هذا الولاء أصرح نسباً وأوضح انتماء .. وعلى ذلك تشيع فى كثير من اللغات المعاصرة عبارة (لغة الأم) ويراد بها اللغة الأصيلة .. فلم يقولوا لغة الأب .. لافتقار هذه العبارة إلى الدقة؛ إذ الأصالة الحقيقية إنما تسرى إلى الطفل من خلال

(*) العربى ـ د. عمر الدقاق ..

أمه؛ لأنه هو مولود من رحمها، وملتصق بها .. وملازم إياها فى ظهور طور تكونه ونموه .. فكأنما المرء فى طفولته يرضع اللغة من فم أمه مع رضاعة اللبن من ثديها سواء بسواء ..

ومن هنا أيضاً يتردد على الألسنة تعبير (الوطن الأم) أى الوطن الأول والأساس، وإن تعددت بعد ذلك الأوطان، ويقصد به وطن المولد والمنبت والمنشأ ..

* **دلالات مجازيـــة :**

وعلى هذا الغرار توسع الناس فى استعمال لفظ الأم عن طريق المجاز، ويعنون به دوماً الأصل أو الجذر أو نحو ذلك، فالمرأة التى تتولى عملاً أساسياً فى مؤسسة ما، من دير أو مستشفى أو مشغل تعرف ـ ولا سيما فى بلاد الغرب ـ باسم الأم .. بل إن لفظ الأم يطلق على كل امرأة مسنة بوجه عام .. وهذا طبعاً من قبيل الاحترام والتقدير، لما تنطوى عليه كلمة أم من هالة محببة عميقة لدى كل إنسان ..

كذلك ـ وربما للسبب نفسه ـ يطلق فى بعض لغات الغربيين اسم (الأم الكبيرة) على ما يسميه العرب مثلاً الجدة؛ إذ لا وجود لمرادف هذا اللفظ فى معاجمهم، كما لا تحتوى لغتهم لفظاً بعينه للحماة، بل يسمونها بالفرنسية مثلاً (الأم الجميلة)..

وهذه التسمية تبدو لنا غريبة بالاستناد إلى معناها الحرفى .. وهى أيضاً قلما تطابق الواقع فى مدلولها، وذلك لانتفاء صفة الشباب والنضارة فى أدنى الأحوال، والكلمة عندهم بطبيعة الحال لا تمت إلى معناهـا بنسب .. ولعلها فقدت هذا المعنى اللغوى الدقيق على مَـرِّ العصور .. وقد يكون فى هذا التعبير السمح ما يرضى نساء كثيرات ..

لأن تسمية الأمور بأسمائها الصريحة أو المباشرة قد تكون ذات وطأة على بعض النفوس، ومعلوم أن حموات كثيرات فى المجتمعات العربية يمتعضن من هذه

التسمية المباشرة، ويؤثرن أن يدعون بكلمات أخرى بديلة مثل ماما أو الست الكبيرة أو امرأة العم.

ومن هذا القبيل عبارات جمة تنطوى على كلمة الأم، وتدور على الألسنة مثل المؤسسة الأم .. أى الكبرى تمييزاً لها عن سائر الفروع، والينبوع الأم أى الأغزر، كذلك يقال : الكتاب الأم أو النسخة الأم، وأيضاً الفكرة الأم بالنسبة إلى بحث أو موضوع .. واللوحة الأم أى الأصيلة .. وتقول العامة : أم الزيت وأم الخمرة أى : أولهما والصفوة منهما، كما تقول أم الخل أى ما يتكون فى أعلى الزجاجة من خلايا بكتيرية أو خمائر تطفو على سطح ذلك السائل.

*** أم الكتاب .. أم المؤمنين :**

أما فى الفكر العربى الإسلامى فقد ذاع تعبير «أم الكتاب» أى سورة «الفاتحة» التى لقبت بذلك لكونها تتصدر آيات الله البينات فى مستهل المصحف الشريف. كذلك عرفت مكة المكرمة فى لسان العرب وعقيدتهم وتاريخهم بأنها (أُم القرى) أى سيدة المدائن ورائدة البلدان؛ لما انطوت عليه من قداسة وعراقة بفضل قيام الكعبة المشرفة فى وسطها منذ عصور سحيقة ..

كما غلب فى تراث الإسلام لقب (أم المؤمنين) على السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبى عليه الصلاة والسلام، فهى فضلاً عن كونها أولى نسائه، فقد حدث فى عهدها الانعطاف العظيم فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم حين اختاره الله لنشر الرسالة .. فإذا هى تشجعه وتسانده، وتغدو بذلك أول امرأة فى التاريخ تعتنق الإسلام، والمرأة الرائدة الأولى التى جعلها المسلمون بمثابة أم للمؤمنين ..

وشبيه بذلك ما رسخ فى عقيدة المسلمين من أن الخمرة أم الكبائر والرذائل، أى أصلها ومصدرها وما كان من هذا القبيل ..

وفى هذا المجال المجازى لكلمة الأم مضى العرب يقولون مثلاً : «ضربه على أُمّ رأسه»، أى على أخطر موضع فى جمجمته، أو أعلى جزء وأهمه فى رأسه .. ويقولون أيضاً «رآه بأم عينه»، أى شاهده عياناً، وعلى وجه اليقين ..

وقد أطلق الأولون على الأرض التى ينبثق من ترابها كل شىء اسم (الأم) أيضاً .. فقال الشاعر الجاهلى أمية بن أبى الصلت :

الأرض معقلنا وكانت أمنا
فيها مقابرنا وفيها نولد

كما قال الشاعر الآخر :

أُمنا الأرض من ترابها خُلقنا
وإليها بعد الممات نعود

ولا يبعد أن ينطوى هذا التعبير فى الأصل على دلالة ميثولوجية سالفة ..

على أن لكلمة (الأم) أخيراً فى لغة العرب أهمية خاصة من حيث الدلالة تسمها بالتميز .. فكلمة (الأمة)، من حيث بنيتها، وثيقة النسب بكلمة الأم .. وهذه ظاهرة لفظية ربما تفردت بها العربية من حيث هذا الارتباط الدلالى دون سائر اللغات .. إذ الفرق بين الأُم والأُمة لا يتعدى صفة الشمول، فالأم والأمة كلتاهما تدل على الأصل أو الجذر، ومنهما يكون التحدر، وإليهما يكون الانتماء.. كما أن الاختلاف اليسير بين الكلمتين فى المبنى هو الذى اقتضى ـ على حسب مفهوم فقهاء اللغة ـ هذا الاختلاف النسبى فى المعنى ..

*** فى العقائد السالفة .. والإسلام :**

إذا كانت النفس الإنسانية منطوية بطبيعتها على كتلة من العواطف وجملة من المشاعر، فما من ريب فى أن عاطفة الأمومة : أنبلها .. ومشاعر الأم تجاه فلذة كبدها: أصفاها.

ومنذ الأزل عمر الكون واتصل النوع بفضل الأم .. حتى إن ديانات غابرة، وعقائد سالفة ارتكزت إلى حد بعيد على تقديس الأمومة وإجلالها، واعتبار الأم أصل الخصوبة والإنجاب، ومنبع الخير والبركة .. ويعتقد علماء الاجتماع وفقهاء اللغات أن تأنيث اسم الشمس فى اللغات السامية دليل على هذا الرأى؛ لأن الشمس فى زعمهم ولادة للنور، دفاقة للحرارة، جلابة للخصب، وثمة تصاوير وكتابات جمة تتجلى من خلال الآثار الشرقية الغابرة والعاديات الموغلة فى القدم، وتبرز عاطفة الأمومة وتجسد دور الأم فى الحياة ..

ثم أحلت الأديان السماوية الأم بوجه عام منزلة سامية، وأولتها احتراماً مستحقاً؛ فالسيدة مريم العذراء أُم السيد المسيح عليه السلام تتبوأ مقاماً عالياً فى عقيدة المسلمين وفى عقيدة المسيحيين على حد سواء .. وقد خصها القرآن الكريم كما خص السيد المسيح بكثير من آيات الاحترام والتبجيل ..

فضلاً عن أن سورة خاصة فى المصحف الشريف سميت بـ (سورة مريم) .. ومن جهة أخرى غدت السيدة العذراء على مر العصور هى الملهمة الأولى لقرائح المبدعين فى العالم؛ إذ حفزتهم على خلق روائع من الفن الرفيع على صعيد الأدب والموسيقا والنحت والتصوير ..

وفى الإسلام ـ ولا سيما من جانبه الإنسانى والخلقى والتربوى ـ اهتمام خاص بشخص الأم وموضوع الأمومة، سواء أكان ذلك فى تناولها مستقلة أو مقترنة مع الأب، وكثيراً ما حض القرآن الكريم والحديث الشريف على بر الوالدين وطاعة الأبوين والإيصاء برعايتهما والإشادة بفضلهما ..

وفى مقابل ذلك استهجن الإسلام عقوق الوالدين، والإساءة إليهما .. وكان هذا من أسس التربية الإسلامية القومية التى تنطلق من قوله تعالى فى القرآن الكريم :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً

كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً» ..

(سورة الإسراء ـ الآيتان ٢٣، ٢٤)

فأول ما يلفت الانتباه فى هذه الآيات أنها جعلت عبادة الله والإحسان إلى الوالدين على صعيد واحد، وفى هذا منتهى التقدير .. والآيات فى مجملها معان سامية ترقى إلى ذروة مراتب التلطف والتهذيب .. والوفاء والإنسانية ..

كما تسمو إلى قمة منازل المحبة والاحترام وعرفان الجميل .. وهى فى الوقت نفسه تتوج أشد النظريات والآراء التربوية أصالة، وأكثرها نبلاً ..

وتنطوى السيرة النبوية على جملة من الأحاديث الشريفة فى هذا المجال أيضاً .. فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم مرة لصحابته :

ـ **«ألا أدلكم على أكبر الكبائر؟»** قالوا : بلى يا رسول الله، قال : **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»** ..

وهذا الحديث الشريف صورة مشابهة لما حض عليه تعالى فى كرام آياته التى سلفت .. فكما جعل الله عبادة الخالق ومحبة الوالدين فى منزلة واحدة، جعل رسوله الكريم الإشراك بالله، وعقوق الوالدين أيضاً فى درجة واحدة ..

وفى خبر آخر : أن رجلاً مضى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوين يبكيان. فأجابه عليه الصلاة والسلام :

ـ **«ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»** ..

وقد خص القرآن الكريم المرأة بواحدة من أطول سوره، وهى سورة (النساء) .. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكن للمرأة ـ هذا المخلوق الإنسانى الوديع ـ كل عطف، ويحض فى أحاديث جمة على رعايتها والترفق بها، فضلاً عما منحه إياها من حقوق، وأعاده إليها بعد الجاهلية من اعتبار ..

وروى أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ـ يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتى؟ فأجابه :

ـ أمك ..

قال : ثم من؟ قال : **أمك**، قال ثم من؟ قال : **أمـك**، قال : ثم من؟ فقال : **أبوك» ..**

على أنه ما من عبارة دارت على الألسنة وسارت فى الآفاق أكثر من القولة الذائعة للنبى العربى :

ـ «الجنة تحت أقدام الأمهات» ..

حتى لقد رددها كل ابن أنثى فى دنيا العروبة والإسلام. وقريب من هذا الحديث الذائع ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً حين أتاه رجل وقال :

ـ يا رسول الله، إننى أردتُ الغزو.

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ هل لك من أم؟

قال : **نعم .**

قال : **فالزمها، فإن الجنة تحت قدميها ..**

ويبدو جلياً أن هذا النهج القويم قد ترسخت جذوره بعد ذلك فى النفوس، وتأصلت عناصره فى السلوك .. فنحن نقع على قصة أخرى مشابهة أوردها صاحب «الأمالى» إذ نقل ما وقع بين أبى الأسود الدؤلى وامرأته من نزاع حول أحقية كل منهما بولدهما .. فاحتكما إلى الوالى زياد بن أبيه حتى يقضى بينهما .. فأمر زياد كلا منهما أن يمسك بطرف من طرفى الولد ويشده إليه بقوة، فمن صار إليه الولد بات له .. وهنا صاحت الأم مذعورة دعه له فإنه ولده .. حينئذ قضى الوالى بالولد للأم ..

* عظمة الأم :

فإذا كان الإيثار قوام عاطفة كل أم تجاه ولدها فى سبيل أن تحتفظ به، وتصون حياته فلا تطيق أن تتمزق أوصاله أو يتحرق جسده ـ فإن التضحية بحياة الولد الغالى فى مقابل ذلك ليموت ميتة أشرف من الحياة، إنما هى فى حقيقتها أعلى مراتب التجلد وأسمى مراقى الحلم، كما أنها تعبير عن ذروة الانتصار على النفس الجائشة، وكبح جماح العاطفة الهائجة ..

أجل فى مقابل هاتين الصورتين الإنسانيتين للأم الرءوم، أم علقمة وأم صخر اللتين تمثلان الأصالة المتألقة للأم، الأم الجازعة الحانية، الأم المشفقة المتسامحة .. تتجلى لنا من وجهة أخرى خلال تراثنا الحافل صورتان رائعتان لجانب آخر ظليل من شخصية الأم، الأم العظيمة الصابرة .. الأم الأبية الشجاعة ..

إنه فى فجر الإسلام، وفى طور اندفاع رسالته خارج الجزيرة العربية غلبت روح الجهاد على النفوس حتى استرخصت الأرواح فى سبيل إعلاء كلمة الله ..

وهكذا مضى أولاد الخنساء الأربعة مع كتائب المجاهدين إلى بلاد فارس تحت راية الإسلام .. وحين عاد الجيش إلى الوطن بعد معركة القادسية المظفرة كان قد خلف فى تلك البقعة التاريخية الدامية جمعاً مباركاً من الشهداء الأبرار، وفى جملتهم أولئك الشبان الأربعة الذين استشهدوا هناك جميعاً ..

كانت الخنساء، بقامتها النحيلة .. فى عداد الجموع التى خرجت لاستقبال شبابها البواسل .. وما إن أقبل عليها بعض المجاهدين وهو يتهيبون لقاءها، حتى وجموا وانعقدت ألسنتهم لهول الخبر، وفداحة الخطب ..

ولكنها كسرت طوق الصمت وجمود الموقف لتسأل بلهفة عن نتيجة الغزو .. عندئذ أخبروها بنبأ الفتح المبين، ثم ما وقع من قضاء الله .. فتنفست الصعداء، وعاد البشْر إلى أسارير وجهها المتغضن .. ثم راحت تدعو ربها، وتناجى أرواح أولادها الطاهرة، بصوت شجى رخيم ملؤه الرضا والإيمان :

ـ «الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم، وأرجو الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته» ..

يا له من نمط فذ من الأمهات يقارب فى تألقه وعظمته روعة الأسطورة، برغم أنه نابع من أعماق الواقع، الواقع الحى البسيط، وهو فى الوقت نفسه نموذج متميز قل أن يكون له نظير فى تاريخ الشعوب!!

وعلى هذا الغرار نحن واجدون فى غمار التراث الإسلامى الحافل، ومن خلال مطولات كتب الأدب العربى القديم أخباراً جمة أخرى عن مواقف وأقوال تتصل بموضوع الأمومة، وتنبئ عن أخلص المشاعر، وأنبل العواطف .. ومن هذا القبيل ما أورده المبرد فى كتابه (الكامل) حين قال : «حدثنى المازنى قال :

ـ رأيت رجلاً يطوف بالبيت (الكعبة) وأمه على عنقه وهو يقول :

أحمـــل أمـى وهـى الحمـالـــة

ترضعنـى الـــدرة والعـلالـــة

أى أنه يحمل أمه الآن وفاء لبعض الدين؛ إذ طالما حملته فى بطنها، ثم حضنته فى حجرها، وراحت ترضعه درة بعد درة من لبنها ..

*** هل أنصف الشعراء الأم؟ :**

والآن، لابد لنا من الاعتراف ـ أن الأدب العربى الذى يولى موضوع الأم اهتمامه قل أن نجد له حيزاً كبيراً فى تراثنا الحافل .. وهذه ظاهرة غريبة تستوقف النظر، لما عرف به الشعر العربى من نزعة غنائية بارزة .. أجل لماذا لم يلتفت الأدب العربى عبر عصوره المديدة، ومن خلال أعلامه وفحوله التفاتاً حقيقيّـا إلى الأم، وموضوع الأمومة؟ ..

والحقيقة أن هذا أمر يصعب تفسيره ويعسر تبريره، ولا سيما أن التعاليم الإسلاميـة فى جملتها ـ وعلى رأسها آيات الله البينات والأحاديث النبوية الشريفة ـ

قد ضربت أروع الأمثال للناس فى هذا الصدد .. وكانت فى ذلك رائدة للأدباء والشعراء ..

يضاف إلى ذلك أن الإسلام أورث المجتمع العربى منذ فجر تكوينه نظاماً أسرياً وطيداً متلاحماً، كما حض على بر الوالدين .. ورفع من شأن المرأة ومنحها حقوقاً جمة، فضلاً عن أنه أنجب عظيمات الأمهات!!

ومع ذلك فان المرأة، سواء كانت أمّـا أم أختاً أم زوجة، لم تكن بالإجمال مصدر وحى أو إلهام للشاعر العربى، وأغلب الظن فى رأينا أن ذلك المجتمع العربى ظل أمداً من الزمان ـ برغم إسلامه وتحضره ـ واقعاً تحت تأثير المفاهيم الجاهلية السائدة والتقاليد القبلية السالفة، وأكثرها لم يكن يولى المرأة عامة ذلك الاهتمام المنشود ..

وإذا ما تصفحنا دواوين الشعر العربى، وهى بطبيعة الحال تشكل شطراً كبيراً من جملة نتاجنا الأدبى، وتكاد تعدل جبلاً فى حجمها ـ هالنا ألا نعثر خلال هذه الغزارة الطاغية إلا على صفحات معدودات لا تشفى الغليل تجاه ذلك الركام البالغ من أشعار العرب فى سائر الموضوعات ..

وهكذا .. كادت الأم تغيب عن الشعر العربى .. على غزارته، وغنى موضوعاته!! ولولا فئة قليلة من الشعراء الذين رادوا هذا المجال، وأبدعوا فيه، من أمثال أبى فراس، وأبى العلاء، والشريف الرضى، وابن سناء الملك .. لهممنا أن نصم غالبية الشعراء العرب بالعقوق وتبلد الشعور، حتى كأنهم لم ينبثقوا فى رحم، ولم يغتذوا من ثدى، ولم يرتعوا فى حضن ..

والحق أن صورة المرأة فى الشعر العربى أمّـا وزوجاً وبنتاً .. لم تتألق على الوجه المنشود إلا فى هذه العصور الحديثة، وما ذلك إلا بفضل انكسار طوق التقاليد الرثة والمفاهيم البالية التى كانت تحول بين الشاعر، وبين مناجاة من يحب ..

لقد بكى الشاعر أحمد شوقى أُمه بلوعة .. ومثله فعل معروف الرصافى، وشبلى الملاط، وخليل مطران .. كما برع فى تناول موضوع الأمومة إبراهيم المنذر، وإلياس

فياض، وصالح الشرنوبى، ومحمود أبو الوفا، وأبو القاسم الشابى، وفدوى طوقان، ثم بدر شاكر السياب، وسليمان العيسى، وأسعد على، ومحمود درويش ..

حتى بتنا نجد بين أيدينا للمرة الأولى فى تاريخ أدبنا العربى دواوين بعينها خص بها الشعراء الأوفياء أمهاتهم .. من ذلك مطولة «ملحمة الأمومة» للشاعر محمد العدنانى، وديوان (أمى) للشاعر : عمر بهاء الأميرى ..

كما نجد فى الوقت نفسه وعلى صعيد مشابه دواوين شعرية بعينها أفردها بعض الشعراء المفجوعين لزوجاتهم أو بناتهم .. من مثل عبد الرحمن صدقى، وعزيز أباظة، وعبد المعين ملوحى .. مما لم يكن أيضاً مثله معهوداً من قبل .. وكل هؤلاء فاضت قرائحهم بأعذب الشعر وأرقّه ..

على أن العطاء الصادق الدافق فى موضوع الأم والأمومة إنما تم فى هذا العصر بفضل أدباء المهجر، من أمثال جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضى، وأمين مشرق، وشكر الله الجر، وشفيق معلوف، وإلياس قنصل، وإلياس فرحات، والشاعر القروى .. الذين أغنوا موضوع الأمومة، ورفعوا من شأنه فى صرح أدبنا العربى ..

لقد كان الحنين إلى الأم، الأم الصابرة التى خلفها ذلك المغترب التاعس وراءه، وطوح بنفسه فى أقاصى الأرض، أرهف صفحة فى سجل الشعر المهجرى الطريف.. أجل استطاعت العنادل[1] المهاجرة وهى فى تلك الربوع الأعجمية النسائية أن تسد أخيراً الثغرة وتصوغ فى موضوع الأمومة درراً يتألق بها جبين أدبنا العربى مدى الدهر.

وبذلك فقط تم شد وتر جديد إلى قيثارة الشعر العربى، باتت تنبعث منه أشجى الأنغام، وأعذب الألحان..

* * *

(١) العندل : الهزار ..

(الأُم .. وحكايتها مع الزمن(*))

(الأُم قلب الأسرة .. ومظلتها وحارس بنائها وسعادتها .. الأُم هى الأسرة كلها)

«إيمرسون»

* * *

الأم : أعظم .. الأم : أقوى .. الأم : أجمل وأروع اسم تحمله امرأة ..

فليس كل النساء أمهات .. ولكن الأمهات نساء .. وأحلى وأجمل قصص الحياة، هى قصة الأم وحكايتها مع الزمن ..

والذى يعيدنا إلى الحديث عن الأم ودورها فى بيتها ومملكتها ومجتمعها .. هو هذا اليوم القريب من الشهر الذى انقضى (٢١ من مارس) عندما احتفلنا بعيد الأسرة .. وعيد الأم .. ووقف الأبناء .. كل الأبناء: الأطفال، والكبار ـ يؤكدون من جديد هذا الحب وهذا الوفاء الذى امتلأت به قلوبهم نحو هؤلاء الذين شاركوا فى أعظم وأسمى وأنبل رسالة من الوجود : «رسالة الحق» .. ورعاية الثمرة الصغيرة حتى تكبر ويقوى عودها .. ثم تعود القصة لتبدأ معها من جديد ..

قالت العروس فى أول رسالة لأمها بعد أن خرجت من بيت والديها مع الرجل الذى سيبنى معها حياتها الجديدة ومستقبلها :

ـ «.. ومشيت يا أمى فى الطريق الذى فرشته لى بالزهور .. صوتك الحبيب مازال يهمس فى أذنى .. نصائحك ترسم لى موضع خطواتى على الأرض .. حبك الكبير الذى غمرتنى به طفلة وصبية وامرأة صنع منى أجمل إنسانة فى

(*) العربى ـ أبريل ١٩٧٨ ..

الدنيا .. ألم أكن أنا وحدى الذى اختارنى هذا الرجل الذى يسير معى فى هذه اللحظة دون سائر النساء؛ لأشاركه فى حياته» ..

وتمضى الزوجة الشابة فى مسيرتها على الطريق .. وتمضى بضع سنين يحمل فيها البريد عشرات الرسائل من الابنة وأمها .. رسائل تمتلئ بصور الحياة الجديدة التى تعيشها الزوجة الشابة فى عشها مع زوجها .. وتمتلئ من الناحية الأخرى بهذا الحديث الحلو الذى طالما تاقت لسماعه .. ولكنه يبدو اليوم جديداً ..

إنه حديث امرأة تتذكر .. ما أجملها من ذكريات وهى ترى صورتها تتكرر فى أعز إنسانة إلى قلبها!! ومع الذكريات تجارب سنوات طويلة تنقلها بكل دقائقها لهذه الصغيرة التى تدعو لها بالسعادة مع كل نهار جديد ..

(الحكاية فى بدايتها)

يصف «نورمان فنست بيل» الكاتب الأمريكى الذى ملأ المكتبة بمؤلفاته عن الزواج وحياة الأسرة والأبناء على مدى ثلاثين عاماً عاشها فى محاولات لا تهدأ لسبر أغوار النفس البشرية وأحاسيسها وانفعالاتها ..

يصف «نورمان» هذا الطريق الذى تعده الأم لابنتها قبل الزواج ومن بعده .. وفى كل مراحل حياتها المقبلة مع زوجها يقول :

ـ «عند الزواج .. تبدأ الحكاية كما لو كانت مسألة شخصية بين رجل وامرأة تحابا وتواعدا على الارتباط أمام الله .. ولكنها ـ أى هذه المسألة ـ لا تبقى شخصية لوقت طويل .. فسرعان ما يدخل فيها شركاء بدعوة من أصحاب هذه الشركة التى بدأت بمؤسسيها التقليديين .. ما أشبه رحلة الحياة بين الزوجين بتلك النزهة التى يخرج فيها الرجل مع امرأته إلى الطريق الهادئ الصغير بين أحضان الريفِ وتحت الأشجار التى اكتست بخضرة الربيع .. وقد تعانقت يداهما فى صمت لا تتخلله سوى زقزقة العصافير!!

(إلى زحام الحياة)

ويمضى الاثنان فى مسيرتهما .. ولكنهما لا يستمتعان طويلاً بهذه الخلوة؛ إذ سرعان ما يجدان الطريق الضيق الصغير الذى لفه الهدوء .. قد قادهما فى النهاية إلى الشارع الواسع الفسيح فى قلب المدينة، حيث تمتلئ الحياة بالصخب والضجيج ..

ويزداد الزوجان التصاقاً واقتراباً .. ولكن لا بدافع الحب الذى ربط بين قلبيهما فحسب .. بل لأنهما يشعران فى هذه اللحظة أنهما أحوج ما يكونان إلى بعضهما البعض .. إن كلاً منهما يحس بحاجته للآخر وحمايته له» ..

الطريق الهادئ فى القرية هو البيت الصغير الذى يجمعهما بعد الزواج .. والمدينة بصخبها وضجيجها هى نفس البيت، ولكن بعد أن وصل إليه الضيوف الصغار .. ثمرة هذا الرباط .. حياتهما الجديدة أصبحت مليئة بالحب والتضحيات والمسئوليات..

لم يعد البيت الصغير لها وله، فقط .. لقد أصبح بيت الأسرة بيت الصغار .. كل شىء فيه لهم ومن أجلهم .. وفى سبيل إسعادهم تهون كل الصعاب ..

(الحب عند الأم)

* هكذا البداية ..

ولكن كيف تسير الحياة بعد مجيئهم؟ ..

ونعود إلى الأم؛ لنعبر لها عما نحمله فى صدورنا من حب ووفاء وعرفان لهذه الإنسانة التى عرفت هى «الحب» فى أروع وأجمل معانيه مع أول صيحة لطفلها الأول .. إنه نفس الحب الذى كانت تراه هى فى عينى أمها، ولكنها لم تعرف سره وقوته إلا بعد أن أصبحت هى أماً ..

يصل الطفل .. ذكراً كان أم أنثى .. فيلتصق بالأم .. يفزع إذا ابتعدت عنه، ولا يهدأ إلا عندما يحس بأنفاسها قريبة منه تداعبه وتدغدغه، فلا يلبث أن يستسلم لنوم هانئ سعيد ..

فالأم هى الدفء، وهى الغذاء، وهو يعرف هذا بالغريزة منذ الأسابيع الأولى لوصوله إلى هذا العالم الواسع من حوله .. إن الأب فى الصورة أيضاً، ولكن الطفل لا يعتمد عليه .. إنه زائر يظهر فجأة ثم يختفى بنفس السرعة التى ظهر بها ..

ويكبر الطفل .. فإذا كان ولداً، وجد نفسه يتجه لأبيه إذا رأى فيه الصديق الذى يهتم به ويشاركه فى ألعابه وهواياته، وخاصة إذا لم يكن له إخوة ذكور .. ولو أن الأم تبقى بالرغم من ذلك الملجأ الذى يهرع إليه عندما يشعر بالجوع أو التعب ..

وهذا وجه الخلاف الأساسى بين الولد والبنت، فهى مع أمها، لا تكاد تبتعد عنها حتى تسرع بالعودة إليها .. فهى التى تصفف لها شعرها، وهى التى تختار لها ملابسها .. وهى رفيقتها فى رحلاتها داخل البيت وخارجه ..

ولذلك تبكى الطفلة عندما تذهب إلى المدرسة؛ لأنها تعودت ألا تشعر بالاطمئنان إلا عندما تكون أمها بجوارها .. وقد يحتاج الأمر إلى أسابيع وربما شهور قبل أن تتعود البنت على هذه الصحبة الجديدة مع زميلاتها وتطمئن إليهن .. ولكنها تبقى بالرغم من ذلك متعلقة بأمها .. سرها كله عندها ومعها .. فهى صديقتها وأنيسة وحدتها .. وهى رفيقتها على طريق الحياة .. حتى بعد أن تتزوج وتصبح أُمّـا مثلها ..

(الأم .. والابنة)

*** تقول الدكتورة «اليزابيث ريموند» أستاذة علم النفس الإنجليزية :**

ـ «لا شىء .. ولا أحد يمكن أن يجعل البنت تنسى أمها .. حتى لو كانت أسعد زوجة فى الدنيا .. وكما لا تستطيع أن تحتفظ طويلاً بالزهرة التى تقتلعها من الأرض التى نبتت فى جوفها وارتوت من مياهها .. كذلك لا تستطيع أن تبتعد الابنة عن أمها فى سن معينة دون أن ينتابها هذا الشعور بأن شيئاً ما .. شيئاً كبيراً فى حياتها قد غاب عنها ..

وكما تذبل الزهرة فى الإناء الذى ملأناه بالماء وحده لنعوضها عن الأرض .. كذلك قد يحدث نفس الشيء للابنة التى تفترق عن أمها، وتنقطع كل الخيوط التى كانت تربطها بها ..

وحتى فى المجتمعات التى لا تكون فيها الرابطة بين الآباء والأبناء بنفس القوة التى تعودناها عندنا فى مجتمعنا الشرقى .. حتى فى هذه المجتمعات نرى الفتاة تعود إلى أمها، ويشدها الحنين إليها إذا تعبت أو أحست بأن الدنيا قد أدارت لها ظهرها لأى سبب من الأسباب ..

* تروى الدكتورة «اليزابيث» قصة الفتاة التى تركت بيت أبويها، وحزمت حقائبها وسافرت إلى بلد بعيد لتكمل تعليمها الجامعى .. وهو شيء عادى يحدث كل يوم عندهم، سواء كان طالب العلم المغترب ولداً أم بنتاً .. ذلك أن الروابط بين أفراد الأسرة تضعف عندما يبلغ الشاب أو الفتاة سن الثامنة عشرة أو ما بعدها ..

عندئذ يكون الاعتماد على النفس .. والاستقلال بالحياة هما الأساس فى هذه التجربة التى تبدأ مع الالتحاق بالجامعة ..

وبقيت الرسائل بين الابنة وأمها .. هى وسيلة الاتصال الوحيدة على مدى أربع سنوات كاملة لم تفكر خلالها الفتاة فى العودة لزيارة أبويها، ولو مرة واحدة حتى فى عطلة الصيف الطويلة ..

(وتمضى الحياة)

* إلى أن علمت الأم بطريق الصدفة أن ابنتها قد تزوجت .. وأنها تضطر إلى العمل خلال أشهرالصيف فى الإجازة الدراسية؛ لتوفر لزوجها مصاريف الجامعة .. فقد كانت هى مازالت تتلقى مبلغاً من والديها فى أول كل شهر يعاونها على مواجهة أعباء الحياة، ودفع نفقات تعليمها الجامعى ..

وفجأة توقف وصول المبلغ الذى تعودت الفتاة أن تتسلمه شهرياً .. لقد مات الأب.. ولكن الأم أشفقت على ابنتها فلم تشأ أن تبلغها .. وخاصة أن الابنة كانت تتوقع حادثاً سعيداً .. فاستمرت تكتب لها، ولكن رسائلها كانت دائماً خالية من الشيك الذى كانت ترفقه بها ..

وأصبحت الابنة بدورها عاجزة عن الاستمرار فى عملها لتوفير نفقات دراسة زوجها .. فقد نصحها الطبيب بالراحة، وكانت بالكاد قادرة على مواصلة دراستها .. فأرسلت إلى أمها تسألها فى حياء :

ـ «هل أطمع فى استمرار مساعدتكما لى؟» ..

واقترضت الأم مبلغاً من المال سارعت بإرساله إلى ابنتها .. ثم خرجت من بيتها لأول مرة .. تبحث عن عمل .. لامن أجلها .. فقد كان المعاش الذى يصرفونه لها بعد وفاة زوجها يكفيها .. ولكن من أجل الابنة التى أحست اليوم بحاجتها إلى المال، أكثر من أى وقت مضى .. وحصلت على وظيفة فى مصنع لحياكة الملابس .. وعادت رسالتها تحمل الأمل مرة أخرى للابنة التى أقعدتها الأمومة المرتقبة عن العمل ..

(الحدث السعيد)

ومضت الأم تعمل .. حتى تلقت أخيراً الخبر الذى انتظرته طويلاً : «لقد رزقت اليوم بمولودة حلوة يا أمى .. كم تمنيت فى هذه اللحظة أن تكونى قريبة منى .. أراك قريباً» ..

ومضت الأم تعمل .. ومضت رسائلها تحمل الأمل للأم الصغيرة ومولودها .. إلى أن تخرج الزوج فى الجامعة .. وبعثت الفتاة برسالة طويلة إلى أمها :

ـ «لم نعد فى حاجة إلى المبلغ الذى ترسلانه إلى، فقد التحق زوجى بعمل يدر علينا دخلاً يكفينا ويزيد» ..

«وفى تلك الليلة ذهبت الأم إلى فراشها وأغمضت عينيها لتستريح، ولكنها لم تنم .. لقد داهمها المرض هكذا فجأة وبلا مقدمات .. أليس غريباً أن تشعر بكل هذا التعب يهد جسدها هداً فى اللحظة التى وجدت نفسها فيها تقف فوق قمة العالم .. كم كانت سعادتها كبيرة هذا الصباح وهى تقرأ البرقية التى تلقتها من ابنتها تزف لها فيها النبأ السعيد .. وها هى الآن لم تعد تقوى على الوقوف على قدميها .. ماذا حدث؟ ما الذى ألم بها؟ ..

ونقلتها جارتها الطبيبة إلى المستشفى .. وقال الأطباء : إنها مصابة بداء الصدر .. وإنها فى حاجة إلى عناية خاصة وغذاء خاص ولفترة طويلة .. من أين لها هذا كله؟..

(رحلة المرض)

ولم تشأ الأم أن تنقل لابنتها هذا الخبر الحزين وهى تحتفل اليوم بأجمل وأحلى حدث فى حياتها .. فأمسكت بالقلم وراحت تكتب بأصابع ضعيفة مرتجفة :

***ـ «سأسافر مع والدك فى رحلة طويلة .. قبلات كثيرة لحفيدتنا الصغيرة .. وإلى أن نلقاكم» ..**

وباعت الأم كل ما تملك؛ لتتمكن من سداد نفقات علاجها فى المستشفى، فلما نفد مالها .. تحاملت على نفسها وعادت إلى بيتها الصغير تقضى فيه ما تبقى لها من عمر ..

وعز على الجارة الطبيبة أن ترى صديقتها تموت مع وحدتها ومرضها .. فأسرعت تكتب إلى الابنة بما كان من أمر أمها المسكينة ..

(دمعة وفاء)

وجاءت الأسرة الجديدة .. الابنة وزوجها وطفلتهما .. وعادت الحياة إلى الأم .. إنها لن تشعر بالوحدة بعد الآن .. كانت فرحتها بلقاء ابنتها وحفيدتها أقوى من كل شيء .. حتى المرض الذى كان يأكل صدرها .. وحملوها إلى المستشفى الذى تركته من جديد .. وسافر الزوج عائداً إلى عمله .. وخرجت الابنة تعمل وتكسب .. وأمام الفراش الذى ترقد عليه الأم بين أيدى الأطباء كن يلتقين كل ليلة .. الأم والابنة والحفيدة ..

ومع اللقاء كانت الذكريات الحلوة للأيام السعيدة التى قضتها الأم مع ابنتها منذ سنوات بعيدة مضت ... ثم وجدت نفسها تعيش فيها من جديد وهى ترى صورة حياتها مع ابنتها تعود مرة أخرى بين الابنة وصغيرتها .. ومع الذكريات، عادت إلى الأم صحتها، وقامت من فراشها ..

ودمعت عينا الابنة وهى تحس لأول مرة بأنها قد دفعت جانباً يسيراً من هذا الدين الذى يطوق عنقها، وأى تضحية فى الدنيا تلك التى تستطيع أن تفى بالدين كله .. أن تعوض الأم ما بذلته، وتبذله من قلبها وروحها ودمها من أجل أبنائها؟!